

سفر المقتبس لابن حيان الأندلسي

وميزان النقد التاريخي

د. طارق ورّاد *

الملخص:

يتضمن هذا المقال دراسة حول الكتابة التاريخية عند أبي مروان ابن حيان الأندلسي من خلال سفر المقتبس، وذلك بالتحليل المنهجي لمختلف القضايا التي أرخ لها هذا المؤرخ من تراجم لأعلام بمختلف طبقاتهم وانتماءاتهم، إلى جانب نقد الروايات التاريخية التي اعتمدها عند تدوينه للتاريخ الأندلسي.

Abstract

This article is a study on the Andalusian historiography during X.S, one of the most important steps of that historiography, which manifests itself in the most illustrious and prolific historian Abu Marwan Ibn Hayyan of Córdoba. By analyzing the methodology of critical history, men, groups and historical facts; and the foundations of this methodology, are based on his work El-muqtabas.

مقدمة:

لم يكن النقد التاريخي مما احتفل به التاريخيون الإسلاميون في مؤلفاتهم، إلا أننا نلمح عند بعضهم شيئا من هذا النهج الفكري، وكثيرا ما يكون له عند صاحبه أصولا وضوابط وضعها لنفسه، أو استمدها من فنون آخر غير التاريخ. وستتناول أعمودنا لكبار التاريخيين "أبو مروان بن حيان القرطبي" صاحب كتاب المقتبس السفر الضخم المؤلف في تاريخ الأندلسيين؛ فهو لم يهتبل كثيرا في كتابه بموضوع النقد التاريخي إذا ما عارضنا ذلك بالتحقيق التاريخي؛ وذلك في طبعة المؤلف أمر مفهوم، فكتاب المقتبس

* - أستاذ بقسم التاريخ - جامعة تلمسان، الجزائر.

مجموع قائم على مقتبسات التاريخيين الأندلسيين، التي تضمنت في ثناياها جوانبا - وإن قلت - من النقد التاريخي والأدبي لكتائبها، نزع أبو مروان إلى إيرادها بشيء من المغايرة في اللفظ وبعض زيادات المعاني. إن قلة تدخلات النثرية الخالصة في هذا المؤلف توافقت وقلة هذه النقود المذكورة المنسوبة إليه؛ لكننا مع ذلك نلاحظ في كل ما كان من كلام تاريخي أو أدبي حياني محض جانبا كبيرا من المادة الفكرية الحياتية، المبينة لملكة قوية في باب النقد، وسنحاول هنا تصفية هذه المادة الفكرية، باحثين عن أصولها وضوابطها عنده.

1- أصول النقد التاريخي عند ابن حيان:

حوى المقتبس مادة تاريخية نقدية لا بأس بها، أظهرت من ابن حيان حسا نقديا مميّزا، قد عري منه الكثير من التاريخيين الأندلسيين وغيرهم، وقد وجدناه في بعض المواضع ينجح إلى أنواع من التأصيل المنهجي النقدي الذي أظهر فيه تميزا وإنفرادا عن أقرانه، وقد ظهر اعتناؤه بالنقد التاريخي في مستويين هامين: مستوى نقد الرجال والجماعات، ومستوى نقد الأحداث، لكن أكثر شخصيته التاريخية الناقدة برزت في مستوى ثالث نظري تمثل في أوجه نقد الرواية التاريخية والتي بها نعرف أصوله في نقد التي بنا عليها منهجه التاريخي العام.

أ- أوجه النقد للرواية التاريخية:

يظهر هذا الجانب التأصيلي عند ابن حيان من خلال نقده للرواية التاريخية إسنادا ومتنا، وكان ميله لنقد الإسناد أظهر منه في نقد المتون على طريقة المحدثين، مما يعرف عندهم بعلم الجرح والتعديل، وإن لم ينظر إليه نظرتهم شديدة التحقيق، إلا أنه في العموم قد سار على منوالهم؛ فرجال التاريخ عنده طبقات غير متساوية الرتبة والحال، بعضها حقه التقديم في الرواية الخبرية، وبعضها الآخر حقه التأخير، كما أن بعضها حقه التضعيف، وبعضها الآخر حقه التوثيق. لأجل هذا يمكننا أن نميز عند ابن

حيان عدة مستويات في نقد رجال الرواية التاريخية وهي: مستوى نقد التوثيق، ومستوى نقد الترجيح، ومستوى نقد التجريح.

أما مستوى **نقد التوثيق**؛ فقد اعتنى به ابن حيان فيما أورده من مروياته الخاصة، ومرويات أصحاب مقتبساته. أما توثيقاته الخاصة فوجدناه ينجح فيها إلى ثلاثة أوجه من الصياغة، فإما أن يوثق صاحب الرواية توثيقاً ضمناً لا تصريح فيه، كما في أخباره عن سطوات عبد الرحمن الناصر التي أوردها بصيغة الجزم عن رواها الذين قدم لهم بقوله: "ما سمعته من المشيخة الدانية بفتنهم من تلك الدولة... ما حملوه عن خواص من أكابر خدمة الخصيان ساكني داره ومشاهدي غيبه"¹، وقوله: "ولحقت مشايخ من الناس خبروا..."²، فهو يوثق هنا الرواة والرواية باتفاق الجمع من المشايخ أو الخصيان على روايتها المتميزين بالقرب من صاحب الحدث أو المعانين له، والمنتمين في الولاء إليه ممن يبعد في العادة قدحهم فيه افتراء.

كما قد يوثق راوي الخبر بنص غير صريح فيه، إما وصفاً له أو حكماً عليه في غير صفة الرواية، مما يشعر بثقته عنده، كقوله في رواية صاعد الطليطلي مما اقتبسه عنه: "وكان من العلم بمكان"³؛ فهذا مشعر بثقته عنده فيما رواه أو أخبر به، إلا أنه غير صريح في الدلالة على ذلك، ونفس هذا المنهج نجده عند أحمد الرازي في قوله في أحد رواياته: "أخبرني شيخ جميل المذهب من أهل طليطلة"⁴.

كما قد يوثق راوي الخبر باللفظ الصريح كقوله في إحدى رواياته: "أخبرني يحيى بن محمد بن نعمان العطار عن أبيه، وكان ثقة"⁵، وهذا المنهج في التوثيق الصريح نجده مثلاً عند جمهرة التاريخيين الأندلسيين، ذوي النزعة التاريخية والأدبية على حد سواء، وإن كان قد تميز من بينهم فيه كل من أحمد الرازي⁶، والقبشي⁷.

أما مستوى **نقد الترجيح**؛ فهو نقد لرجال الرواية الإخبارية من خلال ترجيح بعضهم على بعض، وأوضح مثال على ذلك عنده قوله في معارضة رواية ابن القوطية

والقبشي من جهة، ورواية الشيبينسي من جهة أخرى في مشاركة الوزير يوسف بن سبيل وصول الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى إمارة الأندلس: "ومعاوية (يعني الشيبينسي) أثبت معرفة بأخبار قومه"⁸، فهو هنا رجح رواية الشيبينسي على رواية معارضيه فيما إختص بأخبار المروانية بالأندلس، على أن هذا الترجيح نسبي عنده إنما يختص بأخبار المروانية فقط، وعلل ابن حيان ذلك بقوله أنه أعلم بأحوال آل بيته، وهذا مما لا يخالفه فيه أحد؛ فالشيبينسي باعتباره مروانيا ومن أبناء أمراء المروانية قد جالس رجال هذا البيت وخالطهم وعرف أحوالهم، واطلع على ما لم يطلع عليه غيره من خفاياهم، كل ذلك جعله أثبت التاريخيين الأندلسيين فيما ينقله فيهم، فأما إذا عرض إلى غير أحوال البيت المرواني طلب ابن حيان غيره، كما فعل في أخبار العلماء والشعراء قدم عليه ابن الفرضي وغيره لثقتهم بهم في هذا الباب.

ومن الجدير أن يلاحظ هنا أن ابن حيان قد استعمل في منهج الترجيح مصطلح "أثبت"، ومعلوم شائع أن هذا المصطلح من خصوصيات علم الجرح والتعديل عند المحدثين؛ وكأما اقتبس هذا منهم ووظفه في الرواية الإخبارية التاريخية مؤصلا بذلك لفن مصطلح التأريخ بالأندلس، على الرغم من أنه قد سبق في مصطلحات أخرى أوردها التاريخيون الأندلسيون.

أما مستوى نقد الترجيح، فهو نقد لرجال الرواية الخيرية التاريخية من حيث ضعفهم الكلي أو الجزئي، ومن حيث قبول رواياتهم كليا أو جزئيا، أي التضعيف المطلق أو الجزئي للرواية.

فمن الوجه الثاني ونعني به التضعيف الجزئي، قوله في خبر للشيبينسي: "وقد زعم معاوية بن هشام الشيبينسي نسابة القوم وابن عمهم بأن القاسم بن محمد (يعني ابن الأمير محمد بن عبد الرحمن) كان كثير الشعر، يكتب بالأبيات محمد بن عبد العزيز الشاعر المحسن في وقته"⁹؛ فإن لفظ "زعم" مشعر أن ابن حيان قد ضعف هذا

الحكم النقدي من الشبيني، ولم يرتضيه منه؛ وسببه أن ابن حيان لم يكن يرتضي الأحكام النقدية على الأشعار التي يوردها الشبيني¹⁰، على الرغم من ثقته به فيما أورده من أخبار البيت المرواني، وهذا تضعيف له في بعض جوانب الرواية و التحقيق. وأما الوجه الأول؛ وهو الأصيل في هذا الباب، فأوضح أمثله التضعيف المطلق والمزدوج الذي وصم به أبو مروان مصدره عبادة الشاعر، فقد قال فيه في إحدى رواياته مما تعلق بأخبار البيت المرواني: "ومن دواهي أصحاب الخبر القاذفين بالغيب، المقتحمين على الريب، ما أصبته لأبي بكر عبادة بن عبد الله الخزرجي الشاعر، وبخطه في غض هذا الأمير الجزل محمد بن عبد الرحمن يعزوه إلى الكثير من ثقات دولته، على أنه هو وسلفه لم يزالوا أظناء في بني مروان ناكبين عنهم، قد جاهرُوا لهم بالخلاف عليهم، فما إن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايهم، والتنبث عن مساويهم، و ذلك أنه ذكر... " ¹¹ وذكر خبر كلف الأمير بالزمر والزمرين.

إن هذا النص يظهر لنا بجلاء ركائز النقد التاريخي للرجال وروايتهم الإخبارية عند أبي مروان، وقد حمل من الفوائد حول المنهج التاريخي الحياني ما لم تحمله المسودات من مقتبساته.

لقد حمل هذا النص نقدين أحدهما في رجال الرواية التاريخية أو ما نسميهم بالإخبارين ويسميهم هو "أصحاب الخبر"، والثاني في عبادة الشاعر وآل بيته من الإخباريين، ومجموع النقيدين ينحو إلى نقد الشاعر التاريخي عبادة نفسه، وتجريحه في جانب من روايته الإخبارية. وبمعنى أوضح إن ابن حيان قد استخدم هنا ترتيباً منطقياً في نقد مُنْهَج قدم له بثمانية مقدمات بعضها كلي وبعضها جزئي، وصولاً إلى نتيجة جزئية هي الطعن المباشر في رواية عبادة، وتدرج معها نتيجة كلية هي الطعن أو التجريح لرواية الإخباريين المتعلقة بمخالفهم أو منابذهم.

ولاستجلاء هذا الترتيب المنطقي قمنا بدراسة و تحليل هذا، وتوصلنا إلى أنه

يشتمل على أربع مقدمات كلية هي:

- 1- قوله "ومن دواهي" مقدمة كلية تفيد أن للإخباريين دواهي من الروايات.
 - 2- قوله "أصحاب الخبر"، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين مهتبلين بعلم الرواية دون علم الدراية.
 - 3- قوله "القاذفين بالغيب"، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين يكثرون الخوض فيما لا يعلمون أو يتحققون منه.
 - 4- قوله: "المقتحمين على الريب"، مقدمة كلية تفيد أن الإخباريين لا يتحرجون من اقتحام ما فيه ريبة وشك من الأخبار.
- كما اشتمل على أربع مقدمات جزئية هي:
- 1- قوله "يعزوه إلى كثير من ثقات دولته"، مقدمة جزئية تفيد الطعن في مستند رواية عبادة على سبيل التهمك.
 - 2- قوله: "على أنه هو وسلفه أظناء في بني مروان"، مقدمة جزئية تفيد إثبات العداوة بين آل عبادة وآل مروان.
 - 3- قوله: "ناكبين عنهم"، مقدمة جزئية تفيد إثبات بعد ما بين آل عبادة وآل مروان، وانحرافهم عنهم.
 - 4- قوله: "قد جاهرُوا لهم بالخلاف عليهم"، مقدمة جزئية تفيد إثبات المناودة العلنية بين آل عبادة وآل مروان.
- فكانت النتيجة من هذه المقدمات الكلية والجزئية نتيجتين، إحداها كلية غير منصوص عليها لفظاً، وأخرى جزئية منصوص عليها لفظاً:
- فالثانية قوله: "فما أن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايهم، والتنبث عن مساوئهم"، ويفيد معنى هذه النتيجة الجزئية عدم القبول والطعن في رواية عبادة الشاعر وآل بيته في المروانية، مما يفيد تنقيصاً لهم أو ازدراء لحقهم.

وأما الأولى غير المنصوص عليها؛ فمفهومة من لفظ النتيجة الجزئية السابقة على سبيل مفهوم الموافقة من باب أن إثبات الحكم للجزء لزم اثباته للكل، وهي أنه لا تقبل رواية الإخباري في عدوه أو مخالفه، إذا ما ظهر منها تنقيصا أو ازدراء أو ما أشبهه، مع مخالفة العادة والمعلوم عنه، أو انعدام رواية أخرى موافقة لها.

إن الناظر في هذه المقدمات المنطقية ونتائجها التي خرج بها ابن حيان مما لا يخالفه فيها أحد، بل هي دون شك إحدى الركائز القديمة التي ارتكز عليها علم الحديث عند أهله، فهي من حيث المقدمة والنتيجة صحيحة المبدأ النظري، لكن من حيث التطبيق على الرواية الإخبارية التي أوردها ابن حيان عن عبادة لم تكن بتلك الموافقة، ذلك أن أصل الخبر الذي وردت فيه وهو كلف الأمير بالزمر والزمارين محتتمل الصدق جدا، إذ شهد له خبر آخر أورده ابن حيان نفسه في المقتبس هذا، وهو خبر الوزير هاشم بن عبد العزيز وشرحيل الزامر صنيعة الأمير محمد، والذي رواه عن القبشي، وفيه في وصف شرحيل قال: "وكان أثيرا لديه ممن يليه، وكان يرجع إليه إلى خصال محمودة"¹²، وسياق هذا الخبر وموضوعه يدلان دلالة واضحة على حظوة هذا الزامر وقربه من الأمير محمد، وهذا مما يعضد أصل رواية عبادة التي طعن فيها ابن حيان دون صواب فيما يبدو.

على أن ابن حيان لم يلتزم دائما منهجه النقدي هذا في كل روايات عبادة الشاعر؛ ففي رواية خبر الشريف دحون المرواني أنه منعه الأمير عبد الرحمن بن الحكم منعه من نشر العلم في المسجد الجامع بقرطبة قائلا له: "إنك جد كسر من قريش و منا بحيث تعلمه، ولا يصلح هذا الأمر بك فدعه"¹³. فهذا الخبر أولى بالشك من الخبر الأول لعبادة، فالرواية عارية الإسناد كما أنه ورد ما يخالفها من خبر القاضي إبراهيم بن العباس المرواني الذي كان يجلس للقضاء بين الناس في بيته، وإن جاريته لتنسج في كسر البيت¹⁴، و ذلك في زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

كما نجد يغفل نفس هذا المنهج النقدي في كتابه المتين في ترجمة الفقيه ابن حزم، حيث أورد فيه طعنا له في اختلاقه نسبه الفارسي من بعض من لم يسمه¹⁵، و معلوم أن ابن حزم لمذهبه وشدته في الحق قد جمع من خصومات الرجال ما لم يجمعه أحد قبله في بلده، فكان الأحرى بابن حيان أن يطرد منهجه هذا فيما قيل فيه ولكننا وجدناه يتنكب تلك المحجة الصائبة، و الله أعلم بغرضه من وراء ذلك(؟).

وعلى كل حال، فإن الوضع النظري الذي وضعه ابن حيان، وعلى الصيغة التي قدمها يدلان على تمكن منهجي نقدي متين وأصولي، والحقيقة أن ابن حيان لم يكن الوحيد في مضمار النقد والتاصيل النقدي للروايات الإخبارية ورجالها، فقد رافقه على هذا الدرب جماعة من معاصريه أمثال ابن حزم¹⁶ و ابن عبد البر¹⁷، ممن شغل بالكتابة النظرية والتطبيقية لهذا الضرب من فنون التأريخ، كما سبقه أحمد الرازي والقبشي والخشني وغيرهم؛ فالمدرسة التاريخية الأندلسية قد عرفت صيغ التوثيق والتجريح مبكرة، وإن كانت لم تضع لها اصطلاحا ثابتا، أو أنها لم تر في ذلك حاجة باعتبار وجود اصطلاحات المحدثين، التي كانت تغني عن إحداث اصطلاحات أخرى لعلم التأريخ.

ب- نقد الرجال و الجماعات: وهو نقد ذي صبغة تاريخية ينحو به ابن حيان نحو إصدار الأحكام الخلقية من مدح و ذم وتخطئة وتصويب لأعمال الأفراد والجماعات، على اختلاف طبائعها، ومستوياتها الاجتماعية أو العلمية.

وقد برز القلم الحياني بشكل ملحوظ وموفق أحيانا في هذا المضمار، ويمكن لحظه على مستويين هامين: مستوى نقد الرجال، ومستوى نقد الجماعات.

أ- نقد الرجال: لم يتخلف ابن حيان عن منهجه الصارم في إصدار رأيه على الرجال مما انتحاه في مؤلفاته، فنجد في مقتبسه يميل إلى ذلك الضرب من التأريخ الذي تنكفه الكثير من الأندلسيين؛ فهو على بعد الشقة بينه وبين رجال تاريخه المقتبس إلا أنه لم يتأثم من إصدار الأحكام الخلقية عليهم بطريقتين مختلفيتين هما:

1- تضمين الأخبار المقتبسة ما يذكر بعض معانيهم، فيكون حكما عليهم على وجه التضمنين.

2- الحكم المباشر على أشخاصهم بذكر معانيهم صراحة دون تجميل لأحوالهم مهما عظموا في أعينه أو أعين غيره.

ونجد هذا الوجه الثاني بصورة ملحوظة في الأحكام على أحوال الأمراء المروانية؛ فهو يخصص لبعضهم بابا للذم¹⁸ كالنقد لهم، جمع فيه ما وجده من أخبار تنعى عليهم بعض صفاتهم الخلقية الذميمة. وهو أحيانا إذا لم يجد للأمير من سبقه ذكرا لمعاييه بحث له في رواياته الخاصة ما أغفله غيره في ذلك، إثارة للنصفة في الحكم على الرجال دون تمييز بينهم؛ وقد فعل ذلك في أخبار الأمير عبد الرحمن الناصر حيث أردف فيه اقتباسا عن ابن حزم في عيبه عام اللفظ، برواياته المحققة في أخبار بطشاته أو كما سماها "فطيع سطواته" بنساء¹⁹ قصره، أو ما أربه به الناس من "فطيع المخاوف.. وذلك من أفعال الجبايرة الملوك بالمشرق، ذهب إلى اقتفاء أثرهم فيها"²⁰ كما قال. ونجده أحيانا مصرحا بالذم كما في قوله: "وصفى الملك بالأندلس للأمير الحكم، واشتد سلطانه فعتا وتجر واعتسف رعيته"²¹.

وهو لا يخلي كتابه أحيانا من انتقاد بعض سياسات الملوك الخاطئة، انتقادا لهم في أصل أفعالهم، ومن ذلك انتقاده للخليفة الحكم المستنصر من تدبير لحوق بربر العدو إليه بعدما كان معتقدا قلاهم والإزوار عنهم على مذهب أبيه، إذ كانوا بعدها كما قال الساعين في "إبطال الخلافة، وتفريق الجماعة، والتمهيد للفتنة، والإشراف بالجزيرة على الهلكة"²²، كل ذلك في تضمين خفي، وأصرح منه نقده للحكم أيضا في سوء السياسة في توريث الملك لابنه الصغير مع وفور رجالات ومشيخة المروانية، قال: "ونظم رواة الأخبار وحملة الآثار من مناقبه ما طار كل مطار في جميع الأفطار، إلا أنه تغمد الله خطاياه مع ما وصف من رجاحته، كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه،

وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا، دون مشيخة الإخوة وفتيان العشيرة، ومن يكمل للإمامة بلا محاباة، فرط هوى ووهلة انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته، وقد كان يعيها على ولد العباس قبله، فأتاها مختارا ولا مرد لأمر الله²³.

كما نجده كثير الانتقادات على رجال الدولة أيضا فيما اقتبسه من المادة التاريخية عن غيره، ومن ذلك المقابلة النقدية البارعة التي اقتبسها عن أحمد الرازي بين الوزير هاشم بن عبد العزيز وعمه النكود خالد بن هاشم فيما كان لهما من محامد ومذام، ومن ذلك قوله في خالد: "وكان في ذاته أديبا فهما نبيلًا، وفي طباعه شديد الكبير، عظيم البأو، لا يرى لنفسه كفوا"²⁴، وأمثلة هذه النقود كثيرة ومتنوعة.

كما نجده في انتقاد المخالفين للأمراء والدولة المروانية أشد غلظة وحدة، وصراحة في اللفظ، وتكثيرا للمعانيب بأعنف عبارة، وأوضح إشارة؛ فمن ذلك قوله في جعفر بن عمر بن حفصون المتغلب على ببشتر اقتباسا عن أحمد الرازي: "فكان جعفر، قبحه الله، في ذاته متهورا، سخيفا، جبانًا، ضعيفا، لثيما، ذميما، حسودا، حقودا، نقودا، منافسا لمن تجمل عنده، كنودا لمن استرسل إليه، مؤالفا للسفال، مستصحبا للأراذل، لم تسم به همته إلى مروة، ولا انطوت له نية على جميل"²⁵، وهو في هذا يقتبس المعنى المقصود، ويزيد عليه من عنده فيما يبدو المعاني اللاذعة في الذم والنقيصة بأقبح الأوصاف وأصرحها، مما يوحي لنا بغضه الشديد لهؤلاء نفر المفرقين والقاطعين لحبل الجماعة حتى ذهب بعض الباحثين إلى وصفه بالخروج عن الموضوعية في نعوتة التي نعت بها بعض خصوم الأموية²⁶.

على أننا لم نجد له في نقد العلماء كبير شيء نقابله الطفرة الهائلة منه في نقده لعلماء عصره في كتاب المتين، والأمر طبعي ومفهوم، فالرجل لم يعايش من سبقوه، ولم يعرفهم حق المعرفة ليلقي عليهم سيف قلمه الناقد اللاذع.

ب- نقد الجماعات: وهو نقد يأتي في الغالب في خضم نقد بعض الأفراد الذين تندرج تحتهم جماعات، كما يأتي في نقد بعض الفئات الاجتماعية التي نظر إليها ابن حيان نظرة خاصة.

فنجده مثلا في قضايا البربر منحرفا لإيراد الكثير من المقتبسات في غمزمهم، واحتقارهم، والحكم عليهم بالأحكام الشديدة، ومنه اقتباسه عن ابن مسعود قوله: "وأنس (يعني عبد الرحمن الناصر) ببعة سبنة من جهال البرابر أشباه نعام الدؤ وأساد الغيل، استلانوا عما قليل غرائز أهل الأندلس، وحسدوهم ما ألفوهم عليه من حسن الحال، فلم يلبثوا أن توثبوا عليهم آخر أمر الدولة بيد المقدار وثبة تركتهم أوزاعا، وسلبتهم العز والسلطان، و أركستهم في غياهب الافتنان الذي انسكبوا في عمايته، فطارت عصاهم شققا إلى آخر الزمان"²⁷.

وإذا تدبرنا هذا الاقتباس وجدناه من صميم كلام ابن حيان، ذلك أن ابن مسعود لم يلحق زمن الفتنة، فظهر بذلك أن هذا النقد اللاذع للبربر العدويين هو من نفثات أبي مروان التي تكررت منه في مواضع عدة.

إننا لم نجد ابن حيان أكثر نقدا لجماعة كما وجدناه في نقده للبربر العدويين، ونجد هذا تقليدا قديما سارت عليه أهل الأندلس وبخاصة كتابها، حتى أنه تابعهم عليها بعض من ينسب إلى البربر²⁸، وقد عد بعض الباحثين هذه النزعة الخيانية نوعا من الكراهية²⁹، وقيل الاحتقار³⁰، وقيل الازدراء الشديد³¹، وقيل "بربروفوبيا"³² واضحة المعالم.

لكننا نجد ابن حيان شديد الانتقاد أيضا لجماعات أخرى من المجتمع الأندلسي وغيره، وإن بحدّة أقل، كنقده للعامة من أهل قرطبة وغيرها، وهو في ذلك ينقل فيها أشد أوصاف الاحتقار والازدراء من مقتبساته، ولعله أسهم فيها بقلمه كما أسهم في غيرها، ومن ذلك الوصف الشنيع والنقد اللاذع الذي وسم به الثوار الربضيين من أهل

قرطبة في ثورتهم على الحكم دون انصاف اقتباسا عن التاريخي أحمد بن محمد بن خلف الوراق، وهو قوله: "كان أكثر أهل الربض الكبير... سواما طغاما جهالا أجلافا، أولى استحقاف بالسلطان، وجرأة عليه، وتحصيل لأخباره وطعنان في سيرته، لا يشكرون له نعمة، ولا يغمضون له عن عورة، ولا يعتقدون له هيبة"³³، وقد سود ابن حيان في مثل هذا أشياء كثيرة في تنقص العامة ونقدها بأقبح الأوصاف.

ومثل ذلك وجدناه نقالا لما انتقدت به العبيدية العدوية من روايات وأخبار على ألسنة أصحابها من الخلفاء والأمراء وصفوا لمثالبها، وكأنما يتابع أصحابها فيما وصفوه، ويناغهم فيما اعتمموه، ومن ذلك الكتاب اللاذع في الطعن في المشاركة كما وصفوا به في ذلك الزمان لموسى بن أبي العافية صاحب الدعوة الأموية بالغرب الذي جاء فيه: "ولقد أخبرني رجل من حجاج غربنا أنه مشى في المهديّة يوما، حتى أقبل ابن أحمد الوزير (يعني وزير العبيدية)، ورجل يقرأ علانية "أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" فقال له ابن أحمد علانية: فقد تدبرناه يا كشيخان، فوجدنا فيه اختلافا كثيرا"³⁴، وقد أورد في مثل هذا روايات كثيرة من رسائل الأمراء العدويين والأموية.

كما وجدناه ينحو إلى الانتقاد الفردي الذي يراد به الجماعة، ومن ذلك النقد المشبع الذي جمعه في خبر المتكلم الجدلي محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي، سود فيه عشر صفحات في خبره وخبر مذهبه، حملت ألفاظا لاذعة، وأحكاما مبقعة، كقوله نقلا عن غيره وربما كان من زياداته اللفظية: "الظنين المرتاب"، "المرائي بالعبادة"، "المنطوي على دخل السريرة"، "توارى في شعب الزهاد، وتذرع بها إلى القدح في السنة"، "كان يستهوي العقول ويصيد الأفئدة"³⁵... ويظهر ابن حيان هنا كالمدافع عن معتقد السنة والجماعة، على أن نقده لم يأت فيه من بيان معتقد ابن مسرة ما يشفي الغليل، وقصارى ما أورده عنه وصفه له بانتحال مذهب المعتزلة، وبعض منازعهم في

الاعتقاد، مما يرشد ربما إلى قلة غوصه في هذه المعاني، لكنه دون شك رمى من وراء الطعن في هذا الرجل ونقده مساس مذهبه برمته، ذلك أن هذا المذهب كان لا يزال قائما في بعض نواحي الأندلس زمن أبي مروان³⁶.

وجملة القول أن ابن حيان قد أظهر من خلال نقوده التاريخية فكرا ذا نفس قوية، ميالة لانتقاد الرجال، وإصدار الأحكام العلمية والأخلاقية عليهم فيما انتحلوه من المذاهب المعرفية، ونزعوا إليه من الأعمال السياسية، على أن نقوده هذه لا تقوّم من حيث صحة الحكم أو خطئه إلا تقويم مذاهب أهل الاجتهاد، ولا يحتمل فيها صاحبها إلا ما حتمل فيه غيره فيما اجتهد فيه أخطأ أو أصاب.

ج- نقد الأحداث (الأخبار): لم يهتبل ابن حيان بنقد الأحداث والأخبار القدر الذي نزع فيه إلى تحقيقها، إذ إكتفى في الأغلب بإيرادها برواياتها المختلفة محققا لأصولها دون كبير تدخل في انتقادها إلا في القليل النادر، على أن هذه النقود للحوادث والأخبار قد وردت منه في مواضع مخصوصة هي:

1. نقود للحوادث و الأخبار الطاعنة في الأموية: وقد سبق أن ذكرنا خبر الأمير محمد بن عبد الرحمن في كلفه بالزمر والزمارين الذي أورده ابن حيان من رواية عبادة الشاعر، وطعن فيه بما فيه من التحامل على البيت المرواني من أصحاب الخبر المنتسبين لبيت آل عبادة؛ فوجدناه هنا دابا عن مواليه فيما تنقصوا به، وقد وجدنا نفس هذا الاتجاه المولوي في النقد عند صاحب الأخبار المجموعة حيث يقول في تعليل خبر ثورة بربر المغرب على الدولة الأموية الشرقية، "وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم خرجوا ضيقا من سير عمالهم، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية، فتذبح مائة شاة فرما لم يوجد فيها جلد واحد، وهو قول أهل البغض للأئمة"³⁷، ووجدنا هذه النزعة المولوية مستشرية عند الكثير من

التاريخيين، وهي نزعة رديئة في التاريخ صاحبها البعد عن الموضوعية، وقلة النصفة، والإغراق في العصبية النسبية أو الفكرية أو الدينية.

2- نقود لحوادث الفتن و العصبيات و السياسيات: وهي انتقادات للوضع السياسي المؤرخ أو على خصوص سياسات الأمراء والخلفاء الأندلسيين؛ فمن ذلك انتقاد بشاعة عمل الحكم الرضوي فيمن قام بالمؤامرة عليه من وجوه قرطبة سنة 189 هـ (804 م) فيما عرف بالهيج، حيث قال أبو مروان في نقده: "وبطش بهم بطش الجبارين، و جمع لهم ما بين سفك الدماء، وفظاعة التمثيل، فكوى بهم قلوب أهل مصرهم أجمعين"³⁸، وظاهر من لفظه استثنائه لهذا العمل الذي كوى قلوب القرطبيين، ولعله يلمح بذلك إلى أنه كان من أسباب القومة الكبرى لأهل الرض التي انجلت على هدمه ونفي أهله.

ونجد هذا الضرب من الانتقادات للأمراء يتكرر كثيرا في مؤلفات ابن حيان، كما في خبر جلب "الخليفة" الحكم المستنصر لبربر العدو³⁹، وخبر اجتلاب المظفر بن أبي عامر لبربر صنهاجة⁴⁰، فابن حيان في هذا الباب يعمل فكره كمنظر سياسي خبر الأمور وعرف إلى ما تنزع إليه من فساد الأحوال، على أننا لحظناه في الباب نفسه غير صريح النقد ولا شديد اللوم، بل يأخذ فيه مأخذا وسطا بعيد عن الامتعاض، قريب من اللوم، على أنه لم يسلم من المخالفة من التاريخيين في بعض نقوده، كمخالفة ابن بلقين له في سياسة جلب البربر التي انتهجها الأندلسيون والحاجب المنصور بن أبي عامر، فأتى عليها وباركها، بل جعلها من أوكد الأسباب في الحفاظ على بلاد الأندلس، ودرء الحملات النصرانية عليها، وهنا نلمح مدى أهمية الفروق الاجتماعية للتاريخيين الأندلسيين في التدوين التأريخي، والنقد للحوادث، واستجلاء غاياتها، وآثارها المتعلقة بمجتمعهم.

ووجدناه أيضا منتقدا للأحوال العامة متشائما منها، ويعبر عن ذلك في بعض تعاليقه لما يورده من الأخبار، كقوله في خبر إرادة عمر بن عبد العزيز إجلاء المسلمين من بلاد الأندلس: "وكان من رأيه أن ينقل المسلمين عنها لانقطاعهم وبعدهم عن أهل كلمتهم، قال: و ليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار، إلا أن يستنقذهم الله تعالى برحمته"⁴¹.

و مع قلة أوجه النقد للحوادث عنده، وجدناه قليل النقد لبعض الأخبار التي مال إلى اجتلابها في مقتبسه، مما شابها الإغراب الأسطوري، أو ما اندرج تحت الروايات الشعبية ذات الصفة الخيالية⁴²، والملاحظ أن هذه الروايات الأسطورية والشعبية تكثر في التراث التاريخي الأندلسي في المراحل المتقدمة من تاريخ العدو الأندلسية، وخاصة في أخبار الفتح، وقد حملت المادة التاريخية الحياتية في المقتبس في أجزائها الأولى حول الفتح أكثر هذه المادة، كما لا نشك أنه لم يتعرض لها بالنقد أو النظر.

ولنا من هذا الضرب من الأخبار خبرين مميزين، الأول في خبر قتلى بلاط الشهداء (114و/732 م)، الذي قال فيه بعد إirاده: "فيقال: إن الآذان يسمع بذلك الموضح إلى الآن"⁴³، و يبيّن أسطورية هذا الخبر، فإننا وجدنا مواضع جليلة كغزوتي بدر وأحد، وغيرهما لا يسمع فيها مثل ذلك، والثاني خبر اللواء الأموي بالأندلس الذي أرخ له ابن حيان، وذكر خبر ضياع بقاياها وحن الأمير محمد بن عبد الرحمن عليه، قال في الخبر: "وانفتقت عليه إثر ذلك الفتوق العظام، وكانوا يرون أنه جرت بسبب اللواء، لأنه لم يهزم قط جيش كان تحته، على ما اقتضته حكمة الله تعالى التي لا تتوصل إليها الأفكار"⁴⁴، إن هذه الرواية لتذكرنا بخبر تابوت بني إسرائيل الذي كانت به تنصر في حروبها. ومثله أيضا خبر قول الجني للشعر زمن حروب العرب والمولدين بالأندلس⁴⁵، والذي يذكرنا بخبر الجني وقوله الشعر في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ومثله خبر تعليم الجن الغناء لزرياب⁴⁶، وخبر بلوغ نبأ النبي صلى الله عليه وسلم لملك القوط،

وذكر قومسه بوشوك تغلبه على بلاد الأندلس فيما عنده من علم⁴⁷... وأضرب هذا كثيرة تبين أهمية هذا النوع من الأخبار في المادة التاريخية الأندلسية عموماً، والحيانية على وجه الخصوص.

كما وجدنا أبا مروان شديد الميل إلى إيراد أخبار الحدثان⁴⁸ والتنبؤات على أنها كالمسلمات، لا يلقي عليها نظر الناقد، ولا فكر الناظر، و تحظى عنده بأهمية ملحوظة قد أورد منها الكثير لا في مقتبسه فحسب بل أيضاً في تاريخه المتين، ولنا من أمثلتها الشيء الكثير، فمما جاء منه في المقتبس خبر تنبأ الشاعر عبد الله بن الشمر بمدة دولة الأموية بالأندلس في قوله:

يَا سَائِلِي عَنْ مَدَى أَمْلَاكِ قُرْطُبَةَ عِنْدِي بِذَاكَ لَهْمُ عِلْمٍ وَ آثَارُ
إِذَا أَدِيرَ عَلَيْهِمْ سِتَّةَ رُحُلٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بِأَرْضِ الْعَرَبِ دِيَارُ
وَأَيَّةُ الْقَوْمِ فِي تَغْيِيرِ مُلْكِهِمْ إِذَا عَتَوْا وَطَعَوْا فِي الْحُكْمِ أَوْجَارُوا
فَقُحْطَ يَعْصُمُ بِلَادَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً حَتَّى تَوَدَّعَ مِنْهَا الْأَرْضُ أَمْطَارُ⁴⁹

ومثله في أخبار الحدثان خير الأمير عبد الرحمن الداخل وإعلام عمه مسلمة بن عبد الملك المرواني بملكه بلاد الأندلس وتجديده ملك بني أمية⁵⁰، وكذا خبر اليهودي الحدثاني صاحب عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي إفريقية المتحدث بتغلب القرشي المرواني ذي الضفيرتين على الأندلس والمورثها لعقبه⁵¹.

ونحن نجد هذا النوع من الأخبار ذات الطابع الحدثاني قد كثر إيرادها من التاريخيين الأندلسيين، عبر كل مراحل التدوين التاريخي، ابتداءً بعبد الملك بن حبيب الذي منحها جانباً مهماً من تاريخه، وقلده في ذلك جمهرة التاريخيين بعده⁵²؛ وقد علل بعض الباحثين هذا الاهتمام بالجانب الأسطوري و الحدثاني في تراث ابن حيان بأنه طبيعي في عصره، وأن "له دلالة صادقة على عقلية البيئة ووجدانها، وموقفها من الظواهر والأحداث، وتعبيرها عن هموم الجماعة ومواجهتها وأمانيتها"⁵³. لكن ومع هذا

يبقى هذا الجانب عنصراً هاماً افتقده ابن حيان في باب النقد التاريخي، ولو أنه أغفل كتابه من هذه الروايات المستغربة والمستطرفة لكان أخرى به كمؤرخ ينقب عن خيار الأخبار لا بعيداً عن المعقول المسلم، أو كان يلقي عليها شيئاً من نصاعة ذهنه، وبراعة فهمه فيجلي عنها بعض ما إغتمرها من خيال ممجد.

وعلى أية حال، قد بلغ ابن حيان في جانب النقد التاريخي في مقتبسه - على قلة تدخلاته في الأحداث والأخبار التي يوردها - مبلغاً حسناً يجعله في مصاف المجودين من التاريخين، ولعله ارتقى في بعض الأحيان إلى مصاف المؤرخين المحققين، وهو دون شك لم يكن في أسوأ أحواله من التاريخيين أهل السرد للرواية دون تمحيصها، أو كما يسميهم هو نفسه "أصحاب الخبز".

الهوامش:

- 1- ابن حيان، المقتبس، تحقيق ب. شلميتا وف. كورنيطي وم. صبح (ج4)، المعهد المصري الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط، مدريد، 1979م، ج4 ص 38.
- 2- نفسه، ج4 ص 39.
- 3- نفسه، ج4 ص 278.
- 4- نفسه، ج4 ص 321.
- 5- نفسه، ج4 ص 445.
- 6- ابن حيان، كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس، حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي (ج2)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1393هـ. 1973م ج2 ص 277.
- 7- نفسه، ج4 ص 9.
- 8- نفسه، ج2 ص 119.
- 9- ابن حيان، المصدر السابق، ج2 ص 201.
- 10- نفسه، ج2 ص 23.
- 11- نفسه، ج2 ص 290.

- 12- ابن حيان، المصدر السابق، ج2ص.150
- 13- ابن حيان، المصدر السابق ، ج2ص.95
- 14- نفسه ، ج2ص.59
- 15- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت542هـ/1148م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2000م ، ج1ص 138 - 139.
- 16- ينظر نقده التطبيقي المميز للأخبار المتنقصة للأُموية المشرقية: جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، 1382هـ . 1962م ، ص 79 - 80.
- 17- ينظر في هذا باب الطعن والذم عند ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، ضبط عبد الرحمن محمد عثمان، المطبعة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الثانية ، 1388-1968، ج 2 ص 186.
- 18- ينظر باب الذم الذي خصصه للأمير عبد الله: ابن حيان، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق ملشور م. أنطونية (ج3)، طبعة بولس كنتز الكتي، باريس 1937، ج3 ص 39.
- 19- نفسه، ج4 ص 38.
- 20- نفسه ، ج4 ص 39.
- 21- ابن حيان، السفر الثاني من كتاب المقتبس، تحقيق محمود علي مكي (ج1)، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية، 2001م ، ج1 ص 119.
- 22- ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي (ج5)، دار الثقافة، بيروت، 1965م ، ج5 ص 193.
- 23- ابن بسام، المصدر السابق، ج4 ص 7؛ المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد القرشي التلمساني (ت1041هـ/1632م)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت، 1968، ج3 ص 85.
- 24- ابن حيان، المصدر السابق، ج2 ص 166.
- 25- نفسه، ج4 ص 139.

- 26- عبد القادر زمامة: "ابن حيان وأهل العدو"، المناهل، عدد خاص بندوق ابن حيان، ص 437.
- 27- ابن حيان، المصدر السابق، ج 4 ص 299-300.
- 28- ابن عذاري المراكشي (كان حيا سنة 712هـ/1312م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وإلفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1983م، ج 2 ص 21.
- 29- عبد الهادي التازي: "العلاقات المغربية الأندلسية من خلال "المقتبس" لابن حيان"، دراسات تاريخية، العددان 25-26، كانون الثاني-أيار 1984، ص 429.
- 30- Boch Vila, Jacinto: "El Elemento Humano Norteafricano en la historia de la espana musulmana", in Cuadernos de la biblioteca espanola de tetuan, n° 2, Nov 1964, p. 33-35.
- 31- بوباية عبد القادر، البربر في الأندلس و موقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (الحدي عشر الميلادي) 300-422هـ/912-1031م، رسالة دكتوراه دولة، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ، إشراف غازي جاسم الشمري، السنة الجامعية 1422-1423هـ/2001-2002م، ص 258.
- 32 -Levi provençal, e., Histoire de l'Espagne musulmane; e.d., g-p.maison neuve, ed. e-j, brill, leiden, 1953, p.74.
- 33- ابن حيان، المصدر السابق، ج 1 ص 169.
- 34- نفسه، ج 4 ص 373.
- 35- ابن حيان، المصدر السابق، ج 4 ص 20.
- 36- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الفارسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخارجي، د. ت، ج 4 ص 67، 151.
- 37- مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 111.
- 38- ابن حيان، المصدر السابق، ج 1 ص 121.
- 39- نفسه، ج 5 ص 189.
- 40- ابن بسلام، المصدر السابق، ج 4 ص 59-60، 61-62.

- 41- المقرئ، المصدر السابق، ج3 ص15.
- 42- ذهب خوليان ريبيرا إلى أن كتب التاريخ الأندلسي قد تضمنت حشدا من القصص والأساطير، بعضها يعود إلى أصول مشرقية، وبعضها ذي أصول إسبانية مسيحية، ورجح أن هذه الأخيرة كانت متداولة على ألسن الناس باللغة الرومانثية وأن الأندلسيين أدرجوها بالعربية في أخبارهم وأشعارهم (أحمد مختار العبادي: "التأثير المتبادل في الرواية التاريخية العربية الإسبانية"، في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد، عدد 24، سنة 1987-1990م ص 35).
- 43- المقرئ، المصدر السابق، ج3 ص 15.
- 44- ابن حيان، المصدر السابق، ج3 ص 57.
- 45- نفسه، ج3 ص 63.
- 46- نفسه، ج1 ص 316.
- 47- نفسه، ج4 ص 275.
- 48- علم الحدثان علم ينظر في التنبآت بظهور الملوك وذكر لآماد الدول، وبقائها وعدد ملوكها وأسمائهم وحروبها وملاحمها وقتنها، وكان رجاله كهان وعرافون ومنجمون و عرف في الإسلام من الأحاديث النبوية لما يستقبل من الزمان، ومثلها أقوال الصحابة والتابعين و"الأولياء". وقد ولع به الملوك ولهذا انصرفت العناية إليه بشدة، وأشهر رجال هذا العلم في الإسلام كعب الأخبار، ووهب بن منبه، و بالأندلس الحكم المستنصر، وفرقد بن عبد الله الحرشي، ومحمد بن عبد السلام التدميري (ابن خلدون، المقدمة، ص 330، 439؛ المقرئ، نفح الطيب، ج3 ص 97؛ ابن الفرضي، المصدر السابق ص 97؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ص 387).
- 49 - ابن حيان، المصدر السابق، ج1 ص 395.
- 50 - المقرئ، المصدر السابق، ج32 ص 27.
- 51- نفسه، ج3 ص 28-29.
- 52- ينظر في مثل هذا: ابن حبيب، عبد الملك بن حبيب السلمى، كتاب التاريخ، تحشية سالم مصطفى البدرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1420-1999م، ص 137؛ مجهول، أخبار مجموعة ، ص 125، 129-140؛ ابن عذاري ، المصدر السابق، ج2 ص 259، 257، 22، 18، 17؛ ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد

السلماي(ت776هـ/1374م)، تاريخ إسبانيا الإسلامية، أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، آذار 1956م، ص129؛ ابن بسام، المصدر السابق، ج4 ص44؛ ابن الأبار، المصدر السابق، ج1 ص270.

53- عائشة عبد الرحمن، المرجع السابق، ص29.